الخصائص الأسلوبية في خطب نهج البلاغة

Stylistic Features in the Sermons in The Road of Eloquence

أ.م.د. رسول بلاوي

قسم اللغة العربية وآدابها –جامعة خليج فارس– بوشهر

أ.م.د. محمد غفوري فر

قسم اللغة العربية وآدابها – جامعة الكوثر– بجنورد

Asst.Prof.Dr. Rasul Balawi

University of Persian Gulf،Bushahr، Iran

Asst.Prof. Dr. Mohammed Ghafuri Fur

University of Al-Kuthar ، Iran

r.ballawy@gmail.com

m.ghafourifar65@ gmail.com

تاريخ الاستلام : ٣-٩-٢٠١٦

تاريخ القبول : ٢٦-١٢-٢٠١٦

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

ملخص البحث:

تُعد الأسلوبية من المناهج الجديدة التي زاد الإهتمام بها في العقود الأخيرة وباتت محط أنظار الأدباء والخطباء في العالم بشكل كبير؛ بحيثُ أصبحت إحدى الأدوات والوسائل التي يتمُّ من خلالها تقييم الأعمال الأدبية ودراسة خصائصها الفنية. الأسلوب يمثّل وجها من الوجوه البلاغية والجمالية في كتاب نهج البلاغة للإمام علي(عليه السلام). فهذا البحث يحاول دراسة الأسلوب والخصائص الفنيّة في خُطب نهج البلاغة، وتحاول سبر أغوار النص لتحليل جمالياته ومثيراته الدلاليّة.

هذه الدراسة وفقاً للمنهج الوصفي–التحليلي تهدف إلى دراسة الجوانب الفنيِة والجماليّة في خطب نهج البلاغة في ضوء علم الأسلوبية بغية الكشف عن مدلولات النص. وقد توصّلنا في هذه الدراسة إلى أنّ الإمام استخدم خصائص أسلوبيّة لها تأثير عميق على إيقاع النص وترسيخ المعنى المطلوب في الأذهان، فطريقة إلقاء الخطب ونبراتها الإيقاعيّة تساعد على إيجاد التوازن والكشف عن خفايا الجمال في كلام الإمام.أمّا في المستوى التركيبي توصّلنا إلى أنّ إستخدام التراكيب الفعلية أكثر من الجمل الإسمية عامة وهذا الإستخدام يرتبط بإطار الخطاب السردي في الخُطب حيث انَّ المقام يكون موضع السرد والإخبار. أمّا في المستوى الدلالي فقد ظهر التناسق الفني بين الألفاظ والتراكيب وبدأت المعاني واضحة جلية من خلال الصور البيانيّة وتجسيد الصور الحسية.

الكلمات الرئيسية: الخصائص الأسلوبية، نهج البلاغة، المستوى الصوتي، المستوى التركيبي، المستوى الدلالي.

Abstract

Nowadays stylistics surges into being as important and falls in the orbit of the litterateurs to evaluate the artworks ; both the stylistics and aesthetics come as the essence of the Road of Eloquence for Imam Ali (PBUH)، the meant research endeavours to dissect the artistic merits of the sermons in the Road of Eloquence into mere bones for elegance and its semantic devices.

Due to descriptive analysis the actual study aims at studying the artistic and aesthetic vantage points to cull the context behind the text . It is inferred that the imam deploys certain stylistic features to convey his messages ، yet on the structural level ، the imam employs the verbal structures more than the nominal one as it is pertinent to normativity ، here comes the semantic level to manifest the sense of concordance between utterances and meanings via sensual images .

keywords : stylistic features، Road of Eloquence، Phonetic level ، structural level ، semantic level

المقدمة:

إن التحليل والدراسة الأسلوبية للأعمال الأدبية يعتبر منهجا جديدا وعلميا في النقد الأدبي وهذا النوع من الدراسة يشمل كذلك فن البلاغة وعلم اللسانيات والنقد الأدبي، كما إنه يستعين بعلم النفس وعلم الإجتماع والتاريخ. وقد ظهرت في السنوات الأخيرة تبعا لظهور التيارات الفكرية والعلمية المختلفة مذاهب أسلوبية متعددة منها: الأسلوبية التوصيفية (البياني)، والأسلوبية البنيوية، والأسلوبية التكوينية، والأسلوبية المقارنة، والأسلوبية الشكلية، والأسلوبية الإحصائية و... وكلُّ نوع من هذه الأنواع، يهتمُّ بجانب من النص ويدرسه دراسة أسلوبية بناءا على رؤيته الخاصة للنص.

في الوقت الراهن قد أصبح منهج الأسلوبية ذا أهمية كبيرة نظرا لإعتبارها أداة بيد الكتاب والشعراء للتعبير عن أفكارهم وعقائدهم وما يدور في أذهانهم من مفاهيم و آراء. في هذا المنهج تصبح عملية معرفة العناصر الأسلوبية والتي تُعدّ أصغر أجزاء الأسلوب، وفي نفس الوقت بإعتبارها عوامل تكوين الأسلوب وإنشائه هامة للغاية من حيث اللغة ومن حيث المعايير الفنية للعمل الأدبي، وكذلك من حيث ماهية المضامين الفكرية لصاحب الأثر، والأسلوبية تلعب دورا بارزا في كشف ذوق وفن الكاتب والشاعر وبيان قدرته الأدبية. إن هذا العلم يمهّد الأجواء لمعرفة وتقييم قدرات الأديب وحجم آثار عمله الأدبي على المخاطب، بعبارة أخرى فإن معرفة أسلوب العمل الفني تعتبر خطوة مؤثرة في سبيل معرفة

عقائـد وآراء صاحـب هـذا العمـل؛ إذن فيمكـن القـول إن «الأسـلوبية نـوع مـن التحليـل الأدبي الـذي يـدرسُ الجوانـب المؤثـرة للغـة المجازيـة وجماليـات الصـور اللغويـة مـن خـلال الأسـاليب اللغويـة، وهـذه الأسـلوبية تهتـم باللغـة الرفيعـة والمعقـدة أكثـر مـن اللغـة البسـيطة والسـهلة». (فتوحـي،١٣٩٠: ٩٥)

مـن جملـة النصـوص التـي تسـتحق الدراسـة والتحليـل الأسـلوبي هـي النصـوص الدينيـة لاسـيما نهـج البلاغـة. إنّ نهـج البلاغـة هـي مجموعـة مـن خطـب و رسـائل وكلـمات الإمـام عـلي عليـه السـلام وتعتـبر مـن النصـوص القديمـة التـي تسـطع في سـماء الفـن والأدب وبعـد كلام الله تعالـى تحتـل مكانـة مرموقـة للغايـة، وهـذا الكتـاب نظـرا إلـى بنائـه المسـتحكم وأسـلوبه الأنيـق والأصيـل يعـد أحـد مصـادر اللغـة العربيـة. إنّ هـذا العمـل الفنـي الفريـد مـن نوعـه إضافـة إلـى مضامينـه الخُلقيـة، والتربويـة، والسياسـية يتمتـع بأهميـة فنيـة كبـيرة وذلـك نظـرا لنوعيـة بنائـه، ومفرداتـه، وطريقـة تراكيـب الجمـل، والعبـارات، وإسـتخدام الصناعـات الأدبيـة والبلاغيـة، و قـد سـاعدت هـذه الصفـات علـى أن يحظـى الإمـام عـلي عليـه السـلام بأسـلوب معـين وخـاص ولا نشـاهد هـذا الأسـلوب البليـغ عنـد غـيره مـن الأدبـاء العـرب السـابقين والذيـن أتـوا مـن بعـده.

مـن بـين أقسـام كتـاب نهـج البلاغـة يمكـن القـول أن قسـم الخطـب هـو القسـم الـذي يرسـم صـورة صادقـة مـن شـخصية الإمـام عـلي عليـه السـلام وقـد تـرك لنـا في هـذه الخطـب أجمـل مكنونـات قلبـه مثـل التقـوى الحقيقيـة المعتمـدة علـى الإيـمان المطلـق بـالله تعالـى، وكذلـك حيرتـه مـن خالـق الكـون

والمخلوقات والكمالات الربانية، كما يمكننا أن نتوصل إلى موقف الإمام علي عليه السلام من الدنيا والذي كان يتصف بعدم التعلق والميل إلى ملذاتها ومتعها الفانية، بالإضافة إلى كل ذلك فقد أودع الإمام علي عليه السلام في هذه الخطب البليغة جمالا أدبيا وفنيا للغاية؛ إذن فالدراسة الأسلوبية لخطب نهج البلاغة ـ نظرا لدورها في تبيين شخصية الإمام علي عليه السلام العلمية والأدبية ـ تعتبر وسيلة مناسبة لفهم ومعرفة آفاق هذه الشخصية العظيمة وأداةً لسبر أغوارها وأحاسيسها وأفكارها.

على هذا الأساس نسعى في هذا البحث أن ندرس خطب نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام مستعينين بعلم الأسلوبية، ليكون هذا البحث وسيلة للتعريف بأسلوب وخصائص الإمام علي عليه السلام الفنية والأدبية في ثلاثة مستويات، الأول المستوى الصوتي والثاني المستوى التركيبي (النحوي) والثالث المستوى الدلالي (البلاغي)، ونسعى أن نقدم هذا البحث كوسيلة لمعرفة جديدة من شخصية الإمام علي عليه السلام في المجالات العاطفية والفكرية والعلمية.

أسئلة البحث

١- ما هي الميزات البارزة للخصائص الأسلوبية في خطب نهج البلاغة؟

٢- ما هو الغرض الفني لهذه الخصائص في الخطب؟

خلفية البحث

هناك بحوث مختلفة تعالج خطب نهج البلاغة من عدّة جوانب نشير في ما يأتي إلى أهمّها: كتاب بعنوان: «توثيق نهج البلاغة في ضوء الأسلوبية أصالة نهج البلاغة من منظور الدراسة الإسلوبية»، لعلي حاجي خاني، كلية العلم و القرآن، جامعة تربيت المدرس لطهران، عام ٢٠٠٩م؛ هذا الكتاب يقوم بدراسة إصالة نهج البلاغة حسب المنهج الأسلوبي، لكنّه لم يعالج المستويات الخاصّة بالأسلوبية. مقالة بعنوان «الإيقاع في خطب نهج البلاغة» لنصر الله شاملي، جمال طالبي قره قشلاقي، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، ٢٠١١م/ ١٤٢٣ هـ. ق، العدد ١٨(٣)، ص ٨١-٩٩؛ هذه المقالة تقوم بدراسة الإيقاع وأنواعه في خطب نهج البلاغة دون التركيز على العلاقة القائمة بين موسيقى المفردات والدلالات الأسلوبية. مقالة بعنوان «دراسة شكلانية لخطبة الولاية للإمام علي(عليه السلام)»، لحميد أحمديان وعلي سعيداوي، مجلة إضاءات نقدية، السنة الثالثة، العدد الحادي عشر، خريف ١٣٩٢ش/ أيلول ٢٠١٣م، ص ١١١-١٣٠؛ قام الباحثان في هذا المقال بدراسة شكلانية لخطبة الولاية في ثلاثة مستويات بنائية، ولغوية، ودلالية.

كما أنّ هناك العديد من الدراسات حول الأسلوبية في مجال الشعر وخطب النبي الأكرم ﷺ، والقرآن الكريم فلا تخلو إشارتنا إلى بعضها من جدوى، منها: مقال موسوم بـ «دراسة أسلوبية في قصيدة موعد في الجنة» للباحثينَ عيسى متقي زاده، وكبرى روشنفكر ونور الدين پروين، إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)، السنة الثامنة، العدد التاسع، تدور حول المستوى الصوتي والمستوى التركيبي والمستوى البلاغي والدلالي في قصيدة موعد من الجنة. هناك دراسة تحت عنوان "لغة الحكمة واقناع المخاطب في أسلوب الخطاب النبوي" للباحثة جنان محمد مهدي العقيدي في جامعة بغداد؛ وقد عمد البحث إلى تلمّس أثر تنوّع الأسلوب اللغوي في إقناع المخاطب والتأثير على فكره وتغيير قناعاته بدراسة موضوع حكمة النبي في خطابه وأثر ذلك في إقناع المخاطب. ومقال "من أساليب الخطاب في القرآن الكريم" لوداد يعقوب سليمان منشور في مجلة آداب البصرة وقد ركز فيها على بعض أساليب الخطاب القرآني كالترغيب والتهديد من زوايا التحليل والتفسير والاعتقاد.

لكننا لم نحصل على دراسة شاملة وافية تركّز على الأسلوبية في خطب نهج البلاغة فنحن هنا قمنا بدراستها معتمدين على المنهج الوصفي ـ التحليلي وبعد التعرف على الأسلوب والأسلوبية والمناهج، درسنا هذه الخطب في المستويات الأسلوبية التالية: الصوتية والتركيبية والدلالية.

الأسلوبيّة ومستوياتها:

الأسلوبية من أهم المجالات الدراسية التي تحاول البحث في ميدان اللغة فأهمية التحليل الأسلوبي تتمثّل في أنّه يكشف عن المدلولات الجمالية في النص، وذلك عن طريق النفاذ إلى مضمونه وتجزئة عناصره والتحليل بهذا يمكن أن يمهدَّ للناقد الطريق ويمدُّه بمعايير ومقاييس موضوعية يستطيع على أساسها ممارسة عمله النقدي (فتح الله، ٢٠٠٨م: ٥٣). تهتمّ الأسلوبية بالجانب العاطفي للظاهرة اللغوية، إذ تسعى الأسلوبية إلى تتبع الكثافة الشعورية التي تميّز النص الأدبي، وهكذا فإنّ الأسلوبية تدرس «وقائع التعبير في اللغة المنظمة من ناحية محتواها العاطفي، أي التعبير عن وقائع الإحساس عبر اللغة، وفعل اللغة في الإحساس.» (عبدالمطلب، ١٩٩٤م: ١٨٧)

يمكننا القول إنّ الأسلوب هو طريقة الكاتب في تشكيل المادة اللغوية، وعلى هذا الإعتبار نعرّف الأسلوبية على أنها منهج نقدي حديث، يتناول النصوص الأدبية بالدراسة، على أساس تحليل الظواهر اللغوية، للكشف عن جمالية النصوص، وتقييم أسلوب مبدعها محددةً المميزات الأسلوبية التي يتميز بها عن غيره من المبدعين وهكذا تبدو أهمّ سمات المنهج الأسلوبي هي: «إستكشاف العلاقات اللغوية القائمة في النص، والظواهر المميزة التي تشكل سمات خاصة فيه، ثمَّ محاولة التعرّف على العلاقات القائمة بينها وبين شخصية الكاتب، الذي يشكل مادته اللغوية وفق أحاسيسه ومشاعره التي تجعله يلحّ على أساليب معينة، ويستخدم

صيغاً لغوية تشكل في مجملها ظواهر أسلوبية لها دلالتها في النصّ الأدبي» (عودة، ١٩٩٤م: ٩٩).

يجب القول أن كل دراسة أسلوبية للنصوص ـ بغض النظر عن المذهب الأسلوبي ـ يحتاج إلى منهج معين، ومن أبرز المناهج التي يتفق عليها غالبية الأسلوبيين التي يتم من خلالها تحليل ودراسة العمل الفني هي: المنهج أو المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي والمستوى الدلالي (الداية، ١٩٩٦: ٤٠٢).

١ـ المستوى الصوتي: في هذا المستوى يتم دراسة التردد الصوتي الموجود في العمل الفني والذي قد يستطيع إلقاء مفاهيم عميقة وخاصة.

٢ـ المستوى التركيبي أو النحوي: في هذا المنهج يتم دراسة تراكيب الجمل من خلال محور المجاورة. إنّ قصر الجمل وطولها قد يكون مؤشرا من مؤشرات أسلوب العمل الفني (شميسا، ١٣٧٤: ٢١٦). كما يمكن معرفة أسلوب العمل من خلال إسمية أو فعلية الجمل أو من خلال زمنها.

٣ـ المستوى الدلالي (البلاغي): في هذا المستوى كما يتضح من إسمه يتم بحث المهارات الدلالية للعمل الفني والإنحراف السلوكي للعمل وكذلك يدرس الجانب الإبداعي في هذا العمل؛ إذن ففي تحليل الأعمال الفنية بواسطة المستوى الدلالي يتم دراسة مواضيع من علم البلاغة والبيان مثل: التشبيه، والإستعارة، والكناية، وكذلك جوانب الأخرى من علم البديع مثل: الإيهام، والتناسب، و ...

١ـ المستوى الصوتي

يتم دراسة طرق توظيف الوحدات الصوتية (الجرس والإيقاع) في الموضعة اللغوية وكذلك الإستعمال البلاغي للأصوات. إنّ أهمية التغيرات الصوتية لا تنحصر على عناصر الظاهرية للغة؛ بل إنّ النظام الصوتي له تأثير على تغيير معنى الجمل وكذلك الإيقاعات النحوية لها تأثير عميق على الكلام ودلالاته.

في الدراسة الصوتية لخطب نهج البلاغة ندرس الخطب التي تبرز فيها ظاهرة الأسلوبية بشكل كبير، وإنّ هذه الظواهر الأسلوبية تشمل: السجع، والجناس، ونظم الإيقاع الداخلي، والتكرار، والتضاد، والمقابلة.

١ـ ١ـ السجع

إنّ أحد العناصر الأسلوبية الإيقاعية في نهج البلاغة هو إهتمام الإمام علي عليه السلام بعنصر السجع، وقد يكون السجع أبرز علائم موسيقية خطب نهج البلاغة وقد خلق هذا السجع الموسيقى الخارجية للخطب ويجلب إنتباه القارئ في بداية قراءته لها.

١ـ يقول الإمام علي عليه السلام في ذم أهل الكوفة:

«فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعمِةِ وَاحذَرُوا بَوائِقَ النِّقْمةِ وتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعَشْوةِ وَاعوِجاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا وظُهورِ كَمِينِهَا وانْتِصَابِ قُطْبِهَا وَمَدارِ رَحَاها تَبدَأُ فِي مَدَارِجِ خَفيّةٍ وتَؤُولُ إِلَى فَظَاعةٍ جَليّةٍ شَبَابُها كَشَبابِ الْغُلَامِ وَآثَارُهَا كَآثَارِ السّلَامِ يتَوارِثُها الظَّلَمةُ بِالْعُهُودِ أَوَّلُهُم قَائِدٌ لِآخِرِهِم

وَآخِرُهُم مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِم يتَنَافَسُونَ فِي دُنْيا دَنِيَّةٍ وَيتكَالَبونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ» (خطبة ١٥١)

في هذه الخطبة نشاهد أن الإمام علياً عليه السلام قد أتى بالسجع المتوازن و المتوازي في الكلمات التالية:

السجع المتوازن	السجع المتوازي
العَشْوةِ ـ الفِتْنَةِ	النِّعمَة ـ النِّقْمَة
قُطْبِها ـ رَحَاهَا	جَنبِيهَا ـ كَمِينِهَا
آخِرُهُم ـ أَوَّلِهِم	خَفِيَّةٍ ـ جَلِيَّةٍ
دَنِيَّة ـ مُرِيحَة	الْغُلَامِ ـ السَلَامِ

إن هذه العبارات هي جزء من خطبة للإمام علي عليه السلام في ذم أهل الكوفة وفي هذه الخطبة أحدث السجع المتوازي المتتابع وخلال فواصل قصيرة إيقاعا عنيفا يتناسب مع ظروف الخطبة وبواعثها، فعند سماعنا لهذه العبارات نشعر بقوة لهجة الإمام علي عليه السلام ونتفاعل معه في موقفه من أهل الكوفة.

٢ـ عندما يتحدث الإمام علي عليه السلام عن قدرة الله تعالى ويصف إعراضه عن الدنيا فيستخدم السجع بطريقة جميلة ورائعة:

«فَإِنَّ الدُّنْيا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا، رَدِغٌ مَشْرَعُهَا، يُونِقُ مَنْظَرُهَا، وَ يُوبِقُ مَخْبَرُهَا. غُرُورٌ حائِلٌ، وَ ضَوْءٌ آفِلٌ، وَ ظِلٌّ زائِلٌ، وَ سِنادٌ مائِلٌ. حَتّى إِذا أَنِسَ نافِرُها، وَ اطْمَأَنَّ نَاكِرُها، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِها، وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِها، وَأَقْصَدَتْ

بِأَسْـهُمِها، وَأَعْلَقَـتِ الْمَـرْءَ أَوْهـاقَ الْمَنِيَّـةِ، قائِـدَةً لَـهُ إِلى ضَنْـكِ الْمُضْجَـعِ، وَ وَحْشَـةِ الْمَرْجِـعِ، وَ مُعايَنَـةِ الْمَحَـلِّ، وَ ثَـوابِ الْعَمَـلِ. وَ كَذلِـكَ الْخَلَـفُ يَعْقُـبُ السَّـلَفَ، لاتُقْلِـعُ الْمَنِيَّـةُ اخْتِراماً، وَلايَرْعَـوِى الْباقُـونَ اجْتِراماً، يَحْتَـذُونَ مِثالاً، وَ يَمْضُـونَ أَرْسـالاً إِلى غايَـةِ الإِنْتِهـاءِ، وَ صَيُّـورِ الْفَنـاءِ» (خطبـه ٨٣)

هذه الفقرة من الخطبة تتضمن السجع المتوازن والمتوازي و المطرّف:

السجع المتوازن	السجع المتوازي	السجع المطرّف
رَنِق . رَدِغ	مَنْظَرُها . مَخْبَرُها	مِثَالاً . أَرْسَالاً
مَشْرَبُها . مَشْرَعُها	حَائِلٌ . آفِلٌ . زَائِلٌ . مَائِلٌ	الإِنْتِهَاء . الفَنَاء
أَحْبُلِها . أَسْهُمِها	نَافِرُها . نَاكِرُها	الْمَحَلِّ . الْعَمَلِ
	أَرْجُلِها . أَحْبُلِها	
	المِضْجَع . المَرْجَع	
	إِخْتِرَاما . إِجْتِرَاما	

في هـذا القسـم مـن الخطبـة نشـاهد أن غالبيـة الأسـجاع جـاءت مؤطـرة وقصـيرة الفواصـل، وتزامنـا مـع تغيـير مسـتوى المفهـوم في الـكلام تتغـير معـه الأسـجاع والإيقاعـات؛ وكأن البنـاء الإيقاعـي للأسـجاع في كل قسـم يتبـع قانونـا خاصـا، بحيـث ينتقـل القـارئ دون أن يشـعر مـن جـو إلـى جـو؛ إذن فهـذه الأسـجاع بالإضافـة إلـى إحداثهـا جـوا إيقاعيـا خاصـا فإنهـا تسـاعد كذلـك علـى نقـل المفاهيـم الذهنيـة للإمـام عـلي عليـه السـلام إلـى القـراء، بعبـارة أخـرى فـإن الضربـات المباغتـة لعنـصر السـجع تضـع صـوراً إيقاعيـة أمـام أنظـار القـارئ لينعكـس المعنـى والمفهـوم في ذهنـه بشـكل بسـيط وسـهل.

١ـ ٢ـ الجناس

يُعد الجناس من المحسنات اللفظية في علم البديع وهو أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى (الهاشمي،١٩٦٠م: ٤٥٠) وقيل «الأجناس من كلام العرب ما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى» (مطلوب، ١٩٧٥م: ٢٢٣). إن توظيف الجناس وإنْ كان أقل إتساعا من صناعة السجع إلا أنّ له دوراً كبيراً في إحداث البناء الموسيقي للكلام كما إنه يساعد على إيجاد التوازن والكشف عن خفايا الجمال في كلام الإمام علي عليه السلام. في هذا القسم نسعى ومن خلال ذكرنا لبعض صور الجناس في خطب الإمام علي أن ندلل على جماليات هذا العنصر وهذه الصناعة البلاغية التي أجاد الإمام عليه السلام توظيفها وإستخدامها في خطبه البليغة.

١ـ «فَالْبَصِيرُ مِنْها شَاخِصٌ، وَالأَعْمَى إِلَيْها شَاخِصٌ وَالْبَصيرُ مِنْها مُتَزَوِّدٌ، وَالأَعْمَى لَها مُتَزَوِّدٌ» (الخطبة ١٣٣).

في هذه العبارة نجد مصداق جمالية إستخدام الجناس التام المتماثل بين مفردتي «شاخص» وكذلك بين مفردتي «متزود»، فهذا الإستخدام بالإضافة إلى الجمال الإيقاعي الذي أسدله على العبارة ساعد في فهم المعنى الذي كان الإمام علي عليه السلام يحاول إيصاله لمخاطبه؛ لأن مفردة «شاخص» الأولى تعنى الراحل و«الشاخص» الثانية تعني المشاهد وقد جاءت من فعل «شخصَ بصره». أما مفردة «متزود» الأولى فتعنى المرتحل عن الدنيا والثانية تعني المرتحل نحو الدينا والمقتبل على لذاتها الفانية» (ابن أبي الحديد، ١٩٦٥: ٨/ ٢٧٦).

في هذه العبارة ذكر الإمام علي عليه السلام بإستخدامه لمفردتين متجانستين هما «شاخص ـ شاخص» و«متزود ـ متزود» جملتين لهما قرينة ودلالة خاصة.

في هذا القسم من كلام أمير المؤمنين عليه السلام عند إستماعنا لمفردتي«شاخص» و«متزود» الثانيتين لا يزال إيقاع المفردتين الأوليتين باقياً في نفوسنا، وبعد لحظات يتميز معنى كل مفردة من هذه المفردات ونشعر بجمال الكلام وعذوبته التي زادت وتضاعفت بعد إستخدام الإمام علي عليه السلام لصناعة الجناس، فهاتان المفردتان «الشاخص الأولى والشاخص الثانية» وكذلك «المتزود الأولى والمتزود الثانية» رغم إتحادهما في اللفظ إلا أنّ معناهما مختلف وكل منهما له دلالته الخاصة.

٢ـ «لَا أُوَجِّهُهُ إِلى مَعادِنِ الْخَيْبَةِ وَ مَواضِعِ الرِّيبَةِ» (الخطبة ٩١)

في هذه العبارة جاء الإمام علي عليه السلام بالجناس المضارع بين مفردتي «الخيبة والريبة»؛ إنّ إختلاف هاتين المفردتين ينحصر في حرف «الخاء» الذي يعتبر من الحروف الحلقية وله وقع فخيم وكذلك في حرف الراء الذي يأتي من أول الحلق وله وقع رقيق؛ إذن فبين الرقيق والفخيم حدث نوع من التكرار الذي أحدث إنسجاما وإرتباطا صوتيا وهذا الأمر في حد ذاته قد زاد من جمال هذا الجناس وترك تأثيره الخاص على القارئ والمستمع.

١ـ ٣ـ نظم الموسيقى الداخلية (الموسيقى الناتجة عن تركيب وترتيب الحروف)

إن ترتيب مفردات خطب نهج البلاغة ونظم الموسيقى الداخلية للحروف أو بعبارة أخرى الحروف والأصوات في خطب نهج البلاغة لها دور كبير في إضفاء الجمال على كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وخلال هذا الترتيب للحروف ظهرت لنا موسيقى رائعة للغاية تنسجم فيها المعاني والألفاظ إنسجاما كاملا. ولتوضيح هذه الحقيقة سنتطرق لنماذج من النظم الموسيقى لخطب الإمام علي عليه السلام.

١ـ «وَاحْشُرْنا فِي زُمْرَتِه غَيْرَ خَزايَا وَلا نَادِمِينَ وَلا نَاكِبِينَ، وَلا نَاكِثِينَ» (الخطبة ١٠٦)

في هذه العبارة ومن خلال تكرار حرفي «الكاف» و«النون» بصوتهما الإنفجاري أحدث جوا من الرعب الناتج من الكسل والندم، يتأثر به القارئ، وإنّ إستعمال حروف «لين» في آخر المفردات قد زاد من موسيقية العبارة وجمالها الإيقاعي، وأدى إلى أن يقع الكلام في نفس القارئ بشكل جميل ورائع. في واقع الأمر أن الإمام علي عليه السلام ومن خلال تركه لمعاني المفردات على طبيعتها ساعد على أن تجد هذه المعاني الألفاظ والتعابير التي تنسجم معها.

٢ـ «لَقَدْ جاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ، وَزُجِرْتُمْ بِما فيهِ مُزْدَجَرٌ» (الخطبة ٢٠)

في هذه العبارة نشاهد أن حرف «الراء» قد ذُكر أربع مرات، وحرف

«الـزاي» مرتـين، وحـرف «الجيـم» ثـلاث مـرات، وهـذه الحـروف تعـد مـن الأصـوات والحـروف المجهـورة. (أنيـس، ١٩٧٣: ٧٥ـ ٦٥). إن وقـع هـذه الحـروف وتعمـد تكرارهـا مـن قبـل أمـير المؤمنـين عليـه السـلام وكذلـك تركيبها ومجاورتها مع بعضها البعض تدل على تأكيد الإمام(ع) وتشديده علـى الإنـذار والتحذيـر بالنسـبة لوعـود الله وعقوبتـه.

١ـ ٤ـ التكرار

إن أسـلوب التكـرار يعـد مـن إحـدى الظواهـر الأسـلوبية في خطـب نهـج البلاغـة، ولـه دور كبـير في جماليـات خطـب الإمـام عـلي عليـه السـلام. إن الإمـام قـد اسـتخدم أسـلوب التكـرار لتأكيـده علـى أهميـة المعنـى وايجـاد وحـدة وإنسـجام بـين مواضيـع خطبـه.

نظـرا إلـى أن صناعـة التكـرار يمكـن النظـر إليهـا مـن عـدة جوانـب فإننـا سنسـعى في هـذا البحـث أن نـدرس هـذه الصناعـة التـي اسـتخدمها الإمـام عـلي عليـه السـلام في العديـد مـن المواقـع في خطبـه البليغـة، كـما إننـا سـنبحث التأثـيرات الإيقاعيـة والموسـيقية لهـذه الظاهـرة.

١ـ ٤ـ ١ـ تكرار الحروف

١ـ تكرار حرف «الدال»

«الـذي لَيْـسَ لِصِفَتِـهِ حَـدٌّ مَحْـدُودٌ، وَلا نَعْـتٌ مَوْجُـودٌ، وَلا وَقْـتٌ مَعْـدُودٌ، وَلا أَجَـلٌ مَمْـدُودٌ» (الخطبـة ١)

في هـذه العبـارة، يتضـح تكـرار حـرف «الـدال» في كلـمات «حَـدٌّ، ومَحْـدُودٌ، ومَوْجُـودٌ، ومَعْـدُودٌ، ومَمْـدُودٌ»؛ يجـب الإنتبـاه علـى أن «حـرف «الـدال» هـو مـن الحـروف النطعيـة، وهـذا يزيـد في جازميـة الـكلام وقاطعيتـه» (فتـح الله، ١٩٩١: ٥١)؛ إذن تكـرار حـرف «الـدال» في العبـارة، يُبَـيّن قاطعيـة الـكلام وعـدم وجـود أيّ شـك وريـب في السـياق العـام للعبـارة. فـإن اسـتخدام هـذا الحـرف النطعـي للتأكيـد علـى قاطعيـة الـكلام، ليـس محصـورا في هـذه العبـارة بـل إننـا نشـاهد أن هنـاك نـماذج أخـرى في خطـب الإمـام عليـه السـلام.

٢ـ تكرار حرف «القاف»

«أَخْلاقُكُـم دِقَـاقٌ وَعَهْدُكُـمْ شِـقَاقٌ، وَدِينُكُـمْ نِفَـاقٌ، وَمَاؤُكُـم زُعَـاقٌ» (الخطبـة ١٣)

تـم تكـرار حـرف «القـاف» في هـذه العبـارة ثـماني مـرات في مفـردات «أَخْلاقُكُـم، ودِقَـاقٌ، وشِـقَاقٌ، ونِفَـاقٌ، وزُعَـاقٌ». إنّ ميـزة هـذا الحـرف هـو الوقـع الإنفجـاري الشـديد، وإنّ هـذا الحـرف بهـذه الميـزة يـدل علـى صرامـة وقـوة الكلام(عبـاس، ١٩٩٨: ١٠١).كـما إن هـذا الحـرف بوقعـه القـوي والنافـذ يحـدث نوعـا مـن التحذيـر والإنـذار والتوعيـة وهـذا مـا تسـتدعيه معـاني هـذه الخطبـة. فلـذا ونظـرا لخصوصيـة أو ميـزة حـرف «القـاف»، ذات الوقـع الإنفجـاري المؤثـر علـى نفـوس المخاطبـين، نشـاهد إنّ امـير المؤمنـين عليـه السـلام قـد اسـتخدم بشـكل رائـع هـذا الحـرف في الكثـير مـن خطبـه لإنـذار المخاطبـين.

١ـ ٤ـ ٢ـ تكرار المفردة

إنّ تكرار المفردات في كلام الإمام علي يعتبر من الظواهر الأدبية والموسيقية لخطب نهج البلاغة وقد نشاهد هذه الظاهرة بكثرة في كتاب نهج البلاغة، إن الإمام علياً عليه السلام في إستخدامه لهذه الصناعة يبين لنا مشاعره وأحاسيسه بالإضافة إلى جمالية الإيقاع والموسيقى وفي ما يلي نذكر عدّة نماذج لظاهرة تكرار المفردات في خطب الإمام علي عليه السلام:

١ـ تكرار «الظلم»

«أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلاثَةٌ: فَظُلْمٌ لايُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لايُتْرَكُ، وظُلْمٌ مَغْفُورٌ لايُطْلَبُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لايُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِالله، قَالَ الله تَعالى: إِنَّ اللهَ لايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لايُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً» (الخطبة ١٧٦)

في هذه العبارة أكثر ما يلفت نظر القارئ والمستمع هو تكرار مفردة «الظلم» تسع مرات، وهذا التكرار إضافة إلى مساعدته لبناء المفهوم العام للخطبة يحدث جوا موسيقيا جميلا عند القارئ ويمهد المقام للإمام علي (عليه السلام) لإيصال مفاهيمه إلى القراء والمتلقين كما إنه يقوى علاقة المعاني بالألفاظ.

٢ـ تكرار «الحَرَّ والقُرَّ»

«فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ: هذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ، أَمْهِلْنا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ. وَ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِم فِي الشِّتاءِ قُلْتُمْ: هذِهِ صَبارَّةُ

الْقُرِّ، أَمْهِلْنا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ. كُلُّ هَذَا فِراراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ. فَإِذا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَ الْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ» (الخطبة ٢٧)

في هذه العبارة تم تكرار مفردتي «القر» و«الحر» عدة مرات وكذلك تم تكرار عبارة «فَإِذَا أَمَرتكم بِالسَّيرِ إِلَيهِم وَ أَمهِلنَا» مرتين، وهذا الأمر بما يضيفه من جمال موسيقى على العبارة يصف تقصير وهوان أصحاب الإمام علي (عليه السلام)، كما يرسم لنا صورة من إستمرارية دعوة الإمام علي (عليه السلام) لأنصاره وحثهم على الجهاد في سبيل الله.

١ـ ٥ـ التضاد

قد إستخدم الإمام علي(عليه السلام) هذه الصناعة كثيرا في خطبه. إن الإمام (عليه السلام) حاول أن يستخدم صناعة التضاد لخلق صور جميلة ومتقارنة وكذلك لإيجاد موسيقى وإيقاع جذاب في كلامه؛ نذكر هنا بعض النماذج من هذا الإستخدام في خطب أمير المؤمنين (عليه السلام):

١ـ «وَقَدَّرَ الأَرْزَاقَ فَكَثَّرَها وَقَلَّلَها، وَقَسَّمَها عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ، فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا» (الخطبة ٩١)

يوجد تضاد بين كل من «كَثَّرَها ـ قَلَّلَها»، «الضِّيق ـ السَّعَة»، «مَيْسُورها ـ مَعْسُورها» و «غَنِيِّها ـ فَقِيرها»، وعندما يواجه القارئ هذه المفردات المتضادة يتأثر أولا بإيقاعها الصوتي وثانيا يستدعى من خلال معاني المفردات ما يتضاد معها من مفردات أخرى، إذن ومن خلال إستحضار

معانـي المفـردات المتضـادة يسـتمتع القـارئ بموسـيقى خاصـة وبلـذة دلاليـة فريـدة.

٢ـ «ضـادَّ النُّـورَ بِالظُّلْمَـةِ، وَالْوُضُـوحَ بِالْبُهْمَـةِ، وَالْجُمُـودَ بِالْبَلَـلِ، وَالْحَـرُورَ بِالصَّرْدِ»(خطبـه ١٨٦)

نشـاهد في هـذه العبـارة أن هنـاك تضـادا متتابعـا و مبـاشرا بـين كل مـن «النُّـور ـ الظُّلْمَـة»، «الْوُضُـوح ـ الْبُهْمَـة»، «الْجُمُـود ـ الْبَلَـل» و «الْحَـرُورَ ـ الـصَّرْد»، وقـد أحـدث هـذا الإنسـجام والتضـاد جمـالا خاصـا في كلام الإمـام عـلي عليـه السـلام ويؤثـر علـى سـمع المخاطـب مـن جهتـين؛ الأولـى مـن جهـة الموسـيقى الجذابـة للمفـردات والثانيـة مـن جهـة المتعـة الدلاليـة الحاصلـة نتيجـة للتأمـل في معـاني هـذه المفـردات المتضـادة في المعنـى.

١ـ ٦ـ المقابلة

كثـيرا مـا نشـاهد في خطـب الإمـام عـلي عليـه السـلام صناعـة المقابلـة وقـد إسـتخدم أمـير المؤمنـين هـذه الصناعـة بشـكل رائـع ودون تكلـف وقـد سـاهمت في إحـداث الموسـيقى الداخليـة للـكلام:

١ـ «مـا أَصِـفُ مِـنْ دَارٍ أَوَّلُهـا عَنـاءٌ. وَآخِرُهـا فَنـاءٌ. فِي حَلالِهـا حِسَـابٌ، وَفِي حَرامِهـا عِقـابٌ. مَـنِ اسْـتَغْنى فيهـا فُتِـنَ، وَمَـنِ افْتَقَـرَ فِيهَـا حَـزِنَ وَ مَـنْ سَـاعَاهَا فَاتَتْـهُ، وَمَـنْ قَعَـدَ عَنْهـا واتَتْـهُ. وَمَـنْ أَبْـصَرَ بِهـا بَصَّرَتْـهُ، وَمَـنْ أَبْـصَرَ إِلَيْهـا أَعْمَتْـهُ» (الخطبـة ٨٢)

في هـذه العبـارات مـن خطبـة الإمـام عـلي عليـه السـلام نشـاهد وجـود

صناعة المقابلة وقد إستخدم الإمام هذه المقابلات بين معاني العبارات دون أن يضطر إلى تكلف وتصنع كما يقع الكثيرون عندما يحاولون أن يأتوا بمعان متقابلة: «اَوَّلُها عَناءٌ ـ آخِرُها فَناءٌ»، «في حَلالِها حِسابٌ ـ في حَرامِها عِقابٌ»، «مَنِ اسْتَغْنى فيها فُتِنَ ـ مَنِ افْتَقَرَ فيها حَزِنَ»، «مَنْ ساعاها فاتَتْهُ ـ مَنْ قَعَدَ عَنْها واتَتْهُ» «مَنْ اَبْصَرَ بِها بَصَّرَتْهُ ـ مَنْ اَبْصَرَ اِلَيْها اَعْمَتْهُ»

إن هذه المقابلات المختلفة والمتتابعة بالإضافة إلى إحداثها جوا موسيقا خاصا وجميلا تساعد على شرح وتبين المفاهيم التي كان الإمام علي عليه السلام في صدد بيانها وإيصالها لمخاطبينه.

٢ـ «لَعَنَ الله الآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ» (الخطبة ١٢٩)

جاءت المقابلة في هذه العبارة بين المفردات التالية: «الآمِرِينَ ـ النَاهِينَ»، «المَعرُوف ـ المُنكَر»، «التَارِكِينَ لَه ـ العَامِلِينَ بِه». إن هذه المفردات المتضادة تتمتع بنظام إيقاعي داخلي يترك تأثيرا لا شعورياً على المخاطب والمستمع ويساعد على نقل مفاهيم الإمام علي عليه السلام لأذهان مخاطبيه بعد أن يجعله في جو النص العاطفي.

٢ـ المستوى التركيبي (النحوي)

في هذا المستوى من مستويات الأسلوب التي إستخدمها أمير المؤمنين في خطبه نتحدث عن قضايا مثل الجملة الإسمية والفعلية، الخبرية

والإنشائية، الأساليب الإنشائية، التقديم والتأخير، الحذف أو جمل القسم و ... وقد برزت هذه القضايا جميعها في خطب الإمام علي عليه السلام ويعتبر المستوى التركيبي جزءا من أسلوب الإمام علي عليه السلام ودليلا على قدرات أمير المؤمنين الأدبية والبلاغية.

٢ـ ١ـ الجملة الإسمية والفعلية

إن إستخدام أمير المؤمنين عليه السلام للجمل الفعلية والإسمية في خطبه يعتبر من خصائص أسلوبه ومزاياه، كما إنه يدل على عاطفية الإمام وعظمته وكذلك يعتبر دليلا على حركية خطبه وفاعليتها. إنّ الإمام علياً عليه السلام بتوظيفه الجميل للجمل الفعلية والإسمية يترك تأثيراً كبيرا في نفوس مخاطبيه ويحدث في داخلهم إنفعالا ونشاطا كبيرا للغاية.

على سبيل المثال في الخطبة التالية نشاهد أن تطابق الجملة الإسمية مع الجملة الفعلية في المعنى أحدث صورا خلابة:

«أُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ المُضِلُّونَ، وَالزّالُّونَ المُزِلُّونَ. يَتَلَوَّنُونَ أَلْواناً، وَيَفْتَنُّونَ إفْتِناناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمادٍ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ قُلُوبُهُم دَوِيَّةٌ وَصِفَاحُهُم نَقِيَّةٌ يَمْشُونَ الخَفَاءَ وَيَدِبُّونَ الضَّرَّاءَ» (الخطبة ١٩٤)

إن هذه الخطبة التي قالها الإمام علي عليه السلام في وصف المنافقين تتكون من جمل إسمية وفعلية:

الجمل الإسمية: «فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ المُضِلُّونَ»، «الزَّالُّونَ المُزِلُّونَ»، «قُلُوبُهُم

دَوِيَّـةٌ» و «صِفَاحُهُـم نَقِيَّـةٌ»

الجمـل الفعليـة: «يَتَلَوَّنُـونَ أَلْوانـاً»، «يَفْتَنُّـونَ إفْتِنانـاً»، «يَعْمِدُونَكُـمْ بِـكُلِّ عِـمادٍ»، «يَرْصُدُونَكُـمْ بِـكُلِّ مِرْصَـادٍ»، «يَمشُـونَ الخَفَـاءَ» و «يَدِبُّـونَ الـضَّرَّاءَ».

بالنظر إلى نوعية الجمل التي ذكرها الإمام علي عليه السلام نشاهد أنّه إستخدم الجمل الإسمية لرسم الحالة الحقيقية للمنافقين وعنادهم الدائم والمستمر الذي يعتبر صفة ثابتة في وجودهم وفي ذواتهم؛ لأنّ الجمل الإسمية كما ذكرنا سابقا تدل على الثبوت والإستمرار وقد إستخدم الجمل الفعلية التي تدل بطبيعتها على التجديد والحدوث لوصف ظاهر المنافقين، فهم في الظاهر ينقلبون كل لحظة على حال معين، بعبارة أخرى أنهم يسعون للإضرار بالإسلام والمسلمين ليلا ونهارا، سرا وعلانية ولا يتوقفون عن ديدنهم هذا بل إنه يتجدد كل يوم ويحدث في كل لحظة.

وقد يكون إستخدام أمير المؤمنين للجمل الإسمية والفعلية يهدف من خلاله لإيصال الوصايا التي يريد أن ينقلها لمخاطبيه في خطبه ولتكون وصاياه حول المنافقين في هذه الحالة قوية للتسرب وتنفذ في قلوب القراء والمستمعين وتحدث جوا مناسبا للإنذار والتحذير.

٢ـ ٢ـ الأسلوب الخبري والإنشائي

قد إستعان الإمام علي عليه السلام في الخطب من الأسلوب الخبري والإنشائي؛ لكن ما يعنينا هنا بإعتباره صفة من صفات أسلوب الإمام علي عليه السلام هو إنسجام الجمل الخبرية مع الجمل الإنشائية، بحيث قد يجرى

الـكلام علـى أسـلوب خـبرى أو إنشـائي لكنـه وبشـكل مفاجـئ ينتقـل للأسـلوب الآخـر خلافـا لمـا كان يتوقعـه المخاطـب أو المسـتمع.

في مايـأتي سـنذكر بعـض النـماذج الدالـة علـى تحـول الأسـلوب الخـبري إلـى الإنشـائي، والإنشـائى إلـى الخـبري في خطـب الإمـام عـلي عليـه السـلام.

- في إحـدى خطـب الإمـام عـلي عليـه السـلام التـي كانـت تـدور حـول تخـاذل أهـل الكوفـة في أمـر الجهـاد وإنزعـاج أمـير المؤمنـين منهـم، نشـاهد ظاهـرة تحـول الأسـاليب بوضـوح وجـلاء.

«يـا أَشْـباهَ الرِّجـالِ وَلا رِجـالَ، حُلُـومُ الأَطْفـالِ، وَ عُقُـولُ رَبّـاتِ الْحِجـالِ! لَـوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُـمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُـمْ. مَعْرِفَـةٌ وَالله جَـرَّتْ نَدَمـاً، وَأَعْقَبَـتْ سَـدَماً. قاتَلَكُـمُ الله. لَقَـدْ مَلأْتُـمْ قَلْبـي قَيْحـاً، وَشَـحَنْتُمْ صَـدْرِي غَيْظـاً، وَجَرَّعْتُمُـوني نُغَـبَ التَّهْـمامِ أَنْفاسـاً، وَأَفْسَـدْتُمْ عَـلَيَّ رَأْيـي بِالْعِصْيـانِ وَالْخِـذْلانِ» (الخطبـة٢٧)

هـذه الجمـل تعتـبر أواخـر عبـارات خطبـة الجهـاد وهـي في الواقـع تمثـل قمـة حـزن الإمـام عـلي عليـه السـلام وتألمـه الداخـلي مـن هزيمـة أهـل الكوفـة. إنّ كل جملـة وعبـارة مـن هـذه الخطبـة ترسـم لنـا حالـة الحـزن التـي سـيطرت علـى أمـير المؤمنـين عليـه السـلام. في بدايـات هـذه الخطبـة يخاطـب الإمـام عـلي عليـه السـلام أصحابـه مسـتخدما جمـلاً قصـيرة وأسـلوب النـداء الإنشـائى وذلـك بسـبب حزنـه مـن هزيمـة أنصـاره وعـدم مبالاتهـم في أمـر الجهـاد، يقـول مخاطبـا لهـم: «يَـا أَشْـبَاهَ الرِّجَـالِ» وهـذا يرسـم لنـا مـدى حزنـه وغضبـه وينقـل هـذا الأمـر إلـى أسـماع مخاطبيـه ليشـعرهم بعـدم رضـاه مـن تصرفاتهـم

وأفعالهم وبعد هذا الأسلوب وإستخدام الجمل القصيرة يتغير أسلوب الكلام وينتقل بنا إلى الأسلوب الخبري لينخفض حجم غضبه وحزنه لكن لا يمضي وقت طويل حتى يعود الإمام من جديد ويستخدم الجمل الإنشائية لوصف حالة حزنه وألمه وتنزل جملة «قَاتَلَكُم اللهُ» على رؤوس أهل الكوفة كما تنزل الصاعقة المميتة. في العبارات الآتية من الخطبة نشاهد هذا الإنتقال من أسلوب إنشائي إلى خبرى بشكل كبير وترسم لنا هذه الظاهرة حالة الغضب الداخلية التي كانت تجيش في نفس الإمام علي عليه السلام.

٢ـ ٣ـ الأسلوب الإنشائي

رغم كثرة الأساليب الإنشائية مثل أساليب الأمر، والنهي، والنداء، والإستفهام، والترجي، والتمني في خطب نهج البلاغة إلا إننا وخلال دراستنا لجماليات أسلوب الإمام علي عليه السلام نقتصر على أهم هذه الأساليب وأكثرها إستعمالا في خطبه، وكذلك الأساليب الإنشائية التي لها دلالات جمالية وتحظى بإنسجام تام بين المعنى واللفظ المستعمل. والآن سنقوم بدراسة كل من هذه الأساليب وكيفية إستعمالها من قبل أمير المؤمنين في خطبه.

٢ـ ٣ـ ١ـ أسلوب الأمر

كما ذكرنا سابقا فأن فعل الأمر يعتبر أكثر الأساليب الإنشائية إستعمالا في خطب نهج البلاغة ويلعب هذا الفعل دورا كبيرا في تبيين مشاعر

وإنفعالات الإمام علي عليه السلام الداخلية.

قلما إستخدم الإمام علي عليه السلام أفعال الأمر بمعناها الحقيقي فقد عدل بها عن معانيها الحقيقية وإستخدمها في المعاني المجازية.

١ـ «فَاحْذَرُوا الدُّنْيا فَإِنَّها غَدَّارَةٌ، غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لايَدُومُ رَخاؤُها، وَلا يَنْقَضي عَناؤُها، وَلايَرْكُدُ بَلاؤُها» (الخطبة ٢٣٠)

إن الإمام علياً عليه السلام بإستخدامه لفعل الأمر« احذروا» أراد أن يرشد المخاطب وينذره من التعلق بالدنيا، ثم يعدد الصفات المذمومة لهذه الدنيا التي يحذر منها «إِنَّها غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوع».

٢ـ «أُسْكُتْ! قَبَّحَكَ الله يا أَثْرَمُ، فَوَالله لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فيهِ ضَئيلاً شَخْصُكَ، خَفيّاً صَوْتُكَ، حَتّى إِذا نَعَرَ الْباطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْماعِزِ» (الخطبة ١٨٤)

هذا الجانب من خطبة أمير المؤمنين يدور حول «برج بن مسهر» أحد شعراء الخوارج في عهد الإمام علي عليه السلام وقد ذم أميرُ المؤمنين برجاً هذا بعد أن سمع منه مقولة «لاحُكْمَ إِلاّ لله».(ابن أبي الحديد، ١٩٦٥: ١٠/ ١٣١)

في بداية كلام حول هذا الشخص يستخدم الإمام تعبيرا عنيفا وذلك من خلال إتيانه بفعل«أُسْكُتْ»، ويحقره تحقيرا شديدا ويكمل هذا التحقير

بعد ذكره مفردة «أَثْرَم» والتي تعني سقوط الأسنان الأمامية وعدم القدرة على التكلم الفصيح (شهيدى، ١٣٧٠: ٤٩٦) وبعد هذا الذم والتحقير يذكر أسباب ذمه وتحقيره ويعدد السجايا المذمومة لهذا الرجل الخارجي وسابقته السيئة.

٢ـ ٣ـ ٢ـ أسلوب النهي

١ـ «فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُم لِأَخِيه غَفِيرَةً فِي أَهلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفسٍ فَلا تَكُونَنَّ لَهُ فِتنَةً» (الخطبة ٢٣)

في بداية هذه الخطبة يقوم الإمام علي عليه السلام ببيان تقسيم الأرزاق بين الناس على أساس تقدير رباني، ثم يتوجه إلى الناس وينهاهم عن التعلق بهذه الدنيا الفانية، لكن فعل النهي «لا تَكُونَنَّ» لا يحمل معنى النهي، بل يحمل معنى النصح والإرشاد بناءً على سياق النص.

٢ـ «فَلاتَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِها، وَلاتَعْجَبُوا بِزِينَتِها وَنَعِيمِهَا، وَلاتَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِها وَبُؤْسِها، فَإِنَّ عِزَّها وَفَخْرَهَا إِلَى إِنْقِطَاع، وَإِنَّ زِينَتَها وَنَعِيمَها إِلى زَوال، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَها إِلَى نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى إِنْتِهاء، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلى فَناءٍ» (الخطبة ٩٩)

في هذه العبارة نجد ثلاثة أفعال نهي و هي«لاتَنَافَسُوا، لاتَعْجَبُوا، لاتَجْزَعُوا». الإمام علي عليه السلام إستخدمها خارج معناها الحقيقي ألا وهو النهي، وقد جاءت بدلالة النصح والإرشاد ليؤكد على ضرورة عدم تعلق الناس بالدنيا، وكلام الإمام علي عليه السلام التالي يؤكد على هذا المعنى.

٢ـ ٣ـ ٣ـ أسلوب الإستفهام

من الأساليب الجميلة التي يستخدمها الإمام علي عليه السلام لتوعية المخاطبين وإقناعهم هو أسلوب الإستفهام. إن هذا الأسلوب له دور كبير في خطب نهج البلاغة. في مايأتي سنذكر بعض النماذج لهذا الأسلوب في خطب أمير المؤمنين علي عليه السلام.

١ـ «أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُم وَلَا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُم» (الخطبة ١٨٠)

يقول أحد شارحي نهج البلاغة في هذين الإستفهامين من قبل أمير المؤمنين، أن أمير المؤمنين أراد أن يحرك المشاعر الدينية لأصحابه من خلال هذين الإستفهامين؛ ذلك لأنه في هذه الحالة سيشعر المخاطبون بأن نضالهم وجهادهم هو من أجل دينهم وعقيدتهم وبالتالي ستنبعث فيهم الهمم ويصمدون في مواجهة العدو(موسوي، ١٣٧٦: ١/ ٣٠٥).

٢ـ «أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ؟! الْعَارُ وَرَاءَكُمْ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ»(الخطبة ١٧١)

هذه الجمل هي بعض العبارات التي قالها الإمام علي عليه الإسلام لأصحابه عند عزيمته للذهاب إلى حرب صفين. إن هدف الإمام علي من هذه الإستفهامات المتتابعة هو بعث وتحريك المشاعر الدينية لأنصاره وأصحابه.

٢ـ ٣ـ ٤ـ اسلوب النداء

يستخدم أمير المؤمنين عليه السلام أسلوب النداء في نهج البلاغة بشكل ملفوظ أو مقدر، هذا يلفت إنتباه القارئ أو المستمع ويبعث فيه التحرك والتفاعل.

١ـ «عَلَيْكَ لَعْنَةُ الله وَلَعْنَةُ اللاّعِنينَ، حائِكٌ ابْنُ حائِك مُنافِقٌ ابْنُ كافِر! وَ الله لَقَدْ اَسَرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَ الاْسْلامُ اُخْرى، فَما فَداكَ مِنْ واحِدَة مِنْهُما مالُكَ وَلاحَسَبُكَ» (خطبه ١٩)

عندما إعترض أحد المنافقين الذى كان يدعى«أشعث بن قيس» على كلام أمير المؤمنين في مسجد الكوفة نظر إليه الإمام عليه السلام وخاطبه بأسلوب النداء.

في هذه العبارة نشاهد أن الإمام عليه السلام قد ضجر بشدة من كلام هذا الشخص؛ لهذا أراد تحقيره عندما خاطبه فحذف حرف النداء« أ» الذي يدل على المنادى القريب ليتصور من جانب بأن مخاطبه بعيدٌ وليس له شأن أو قيمة ومن جانب آخر إجتنب إستخدام حرف النداء ونادى بإسمه مجردا من أدوات النداء.

٢ـ «اللهم! إِنّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّوني، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُوني» (الخطبة ٢٥)

قد خطب الإمام علي عليه السلام هذه الخطبة عندما جاءته أخبار عن سيطرة جيوش معاوية على بعض المناطق التي كانت تخضع لحكم الإمام علي عليه السلام(ابن ميثم، ١٣٧٥: ٢/ ٣٥). لهذا إستخدم أمير المؤمنين

أسلوب النداء «اللهم» والذي تم حذف حرف «ياء» وذكر بدل له وهو حرف «الميم المشددة» مخاطبا ربه تعالى، وهذا الإستخدام لأسلوب النداء يخرج عن معناها الحقيقي ليدل على تضرع الإمام لربه ومناجاته وبث حزنه من الدنيا وأهلها.

٢ـ ٤ـ التقديم والتأخير

في خطب نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام كثيرا ما نشاهد ظاهرة التقديم والتأخير تحدث في الخبر ومتعلقات الفعل (المفعول به، والظرف، والجار والمجرور) بحيث تبرز هذه الظاهرة في جميع خطبه ويدل هذا التقديم في الغالب على الحصر والتخصيص.

والآن سنذكر عدة أمثلة لهذه الظاهرة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

ـ «الخارِجَةُ مِنَ الأَقْطارِ أَرْكانُهُمْ، وَالْمُناسِبَةُ لِقَوائِمِ الْعَرْشِ أَكْتافُهُمْ، ناكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصارُهُمْ» (الخطبة ١)

في هذه العبارة نشاهد تقديم الخبر(المسند) «نَاكِسَةٌ» على المبتدأ «أَبْصَارُهُمْ» وذلك لرعاية السجع بين الفواصل؛ لأنه إذا ما تم تقديم المبتدا في هذه العبارة لذهبت الموسيقى الجميلة الناتجة عن السجع الموجود بين المفردات.

ـ «لَهُ الإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيءٍ وَالغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيءٍ وَالقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ» (الخطبة ٨٦)

في هـذه العبـارة تـم تقديـم الخـبر «لَـهُ» علـى المبتـدا المعرفـة «الإِحَاطَـةُ» لإفـادة التخصيـص، وفي هـذه الحالـة تعنـي العبـارة أن الله تعالـى مسـيطر وقـادر علـى كل شـيء.

٢ـ ٤ـ ١ـ تقديم المفعولبه

ـ «فَاللهَ لاتُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً ومُحَمَداً لاتُضَيَّعُوا سُنَّتَهُ» (الخطبة ١٤٩)

في هـذه العبـارة تـم تقديـم المفعـول «اللهَ» علـى الفعل«لاتُشْرِكُـوا» وكذلـك قـدم المفعـول «مُحَمَـداً» علـى الفعـل«لا تُضَيَّعُـوا» والغايـة مـن هـذا التقديـم التخصيـص وتشـجيع القـارئ علـى معرفـة مقصـود الـكلام ليحـرك فيـه أحاسيسـه ويبـث فيـه طاقـة التعقـل والتفكـير.

ـ «وَأَزْمَـعَ التَّرْحَـالَ عِبَـادُ الله الأَخْيـارُ، وَبَاعُـوا قَليـلاً مِـنَ الدُّنْيـا لايَبْقـى بِكَثـير مِـنَ الآخِـرَةِ لايَفْنـى» (الخطبـة ١٨٢)

نشـاهد في هـذه العبـارة تقديـم المفعـول بـه «التَّرحَـالَ» علـى الفاعل«عِبَـادُ الله» وهـذا للإفـادة بأهميـة مسـألة المـوت والآخـرة، ليتـم جلـب إهتـمام القـارئ إلـى هـذه القضيـة الهامـة.

٢ـ ٤ـ ٢ـ تقديم الجار والمجرور والظرف

ـ «إِلَى الله أَشْكُو مِنْ مَعشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً وَيَمُوتُونَ ضُلَّالاً» (الخطبة ١٧)

تـم تقديـم الجـار والمجـرور «إِلَـى» علـى عاملـه «أَشْـكُو» في هـذه العبـارة، وهـذا التقديـم يفيـد الإختصـاص وإنحصـار أمـر الشـكوى إلـى الله تعالـى.

وهـذا الحـصر يظهـر مـدى حـزن الإمـام عـلي عليـه السـلام، لأنـه قـد يـأس مـن جميـع الخلـق وبـث حزنـه وألمـه إلـى الله وحـده.

ـ «فِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ» (الخطبة ٢٣٣)

قُـدّم الجـار والمجـرور «فِينَـا» علـى فعـل «تَنَشَّـبَتْ» وكذلـك «عَلَيْنَـا» على«تَهَدَّلَـتْ» لإفـادة التخصيـص. تجـدر الإشـارة هنـا إلـى أن هـذا التقديـم زاد مـن جمـال الموسـيقى وقـد راعـى الإمـام عـلي عليـه السـلام هـذا الأمـر للإحتفـاظ بموسـيقى الـكلام وإيقاعـه.

٢ـ ٥ـ الحذف

إن صناعـة الحـذف تعتـبر إحـدى خصائـص أسـلوب الإمـام عـلي عليه السلام في خطبـه، ونشـاهد هـذه الصناعـة بكثـرة داخـل هـذه الخطـب التـي قـد زادت مـن جمالياتهـا هـذه الصناعـة. إن طـرق الحـذف في خطـب نهـج البلاغـة مختلفـة ومتعـددة، لكـن مـا يعتـبر صفـة مـن صفـات الأسـلوب الخـاص بالإمـام عـلي عليه السلام والـذي يلفـت الأنظـار هـو حـذف المبتـدا والفاعـل والمفعـول بـه.

ـ «الأَوَّلُ الَّذِي لا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي وَلا آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِيَ» (الخطبة ٩٤)

أحـد أهـداف حـذف المبتـدأ، هـو عندمـا تكـون حقيقتـه معروفـة و معينـة (التفتـازاني، ١٣٨٥: ٦٦). في هـذه العبـارة وضعـت مفـردة «الأَوَّلُ» موضـع الخـبر وحـذف لفـظ الجلالـة «الله» لوضوحـه ومعرفتـه.

ـ «جُفَاةٌ طَغَامٌ وَعَبِيدٌ أَقْزَامٌ جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ» (الخطبة ٢٣٨)

هذه العبارة هي الجملة الأولى من خطبة للإمام عليه السلام في وصف أهل الشام وقد حذف لفظ المبتدا لصيانة اللسان من التلفظ به وذكرهم بصفاتهم فقط لتحقيرهم وذمهم.

ـ «لَكانَ ذلِكَ سُلَيْمانُ بْنُ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالإِنْسِ مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ» (الخطبة ١٨٢)

حذف في هذه العبارة فاعل «سُخِّرَ» و هو «الله» تعالى وذلك لمعرفته ووضوحه؛ لهذا جاء هذا الفعل بصيغة المجهول.

٣ـ المستوى الدلالي (البلاغي)

يعتبر المستوى الدلالي من الأقسام الهامة والرئيسية في علم الأسلوبية، وبقليل من التجوز يمكننا أن نقول أن هذا القسم هو أهم ركن من أركان الأسلوب في كل عمل فني؛ لأن جميع الخصائص التي يمكن أن تشكل فنية العمل الأدبي تتجلى في هذا المستوى من مستويات الأسلوب. ويقصد من المستوى الدلالي في هذا القسم هو دراسة العناصر البلاغية التي قد يستعين بها المتكلم خلال تكلمه في البعد البدلي وأحيانا من خلال تصرفه في محاور تركيب العبارات ويغير من دلالات الكلام؛ مثل ما نشاهد ذلك في العناصر البلاغية لعلم البيان والمحسنات الدلالية. (فضل، ١٩٩٢: ٢١٦)

إن أحد الخصائص الأسلوبية لخطب نهج البلاغة هي بروز الظواهر الدلالية (البلاغية). إن أمير المؤمنين من خلال الطرق الدلالية المختلفة

ينقل ما يدور في ذهنه إلى المخاطب أو المستمع.

ولتوضيح هذا الأمر سندرس في ما يأتي بعض الموضوعات مثل: التشبيه، والإستعارة، والكناية، والمجاز (المرسل و العقلي)، والرمز، والتناقض، والتناص والتي تعتبر ظواهر أسلوبية في المستوى الدلالي لخطب الإمام علي عليه السلام.

٣ـ ١ـ التشبيه

إن أحد الخصائص الأسلوبية لخطب الإمام علي عليه السلام هو إستخدامه لصناعة التشبيه بشكل كبير في خطبه، بحيث يمكن القول أن كتاب نهج البلاغة الذي يضم هذه الخطب يعتبر أغنى الأعمال الفنية من حيث إستخدامه للتشبيهات الرائعة والجميلة. إن النماذج الآتية تؤكّد هذه الحقيقة:

١ـ «أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا إِبْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى» (الخطبة ٣)

إن الإمام علياً عليه السلام يشبه جدارته بأمر الخلافة ومكانته من الأمة الإسلامية مثل حالة القطب من الرحى، وهذا التشبيه في حد ذاته يشمل ثلاثة تشبيهات:

أ- تشبيه مكانته من الخلافة بمكان القطب من الرحى هو تشبيه معقول بمعقول، بإعتبار أن مكان القطب هو المنظم لأحوال وأوضاع الرحى هو أمر معقول.

ب ـ تشبيه نفسه بقطب الرحى من نوع التشبيه المحسوس بالمحسوس

ج ـ تشبيه الخلافة بالرحى من نوع تشبيه المعقول بالمحسوس.

إن ظاهر كلام أمير المؤمنين هو أنه بدون القطب لا يمكن إحداث النظم في حركة الرحى؛ لكن مفهوم كلامه هو أن في عصره لا يوجد هناك شخص آخر يستحق نيل مقام الخلافة، كما إنه لا يمكن لشيء آخر يؤدي دور القطب في تحريك عجلة الرحى» (ابن ميثم، ١٣٧٥: ١/ ٢٥٤)

في هذا التشبيه يصف الإمام علي عليه السلام مكانته من أمر الخلافة وذلك من خلال إستخدامه لجمل قصار وتوظيف مفردات مفتاحية ولثلاثة تشبيهات دقيقة، وبذكر ثلاثة أوجه شبه مختلفة لكن مرتبطة مع بعضها البعض يأتي لنا بصور بديعة وطريفة ويسعى أن يسيطر على عقول المخاطبين ويقنعهم بجدارته وأحقيته في أمر الخلافة التي أغتصبت منه.

٢ـ «تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ، يَا أَشْبَاهَ الأَبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا، كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِب تَفَرَّقَتْ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ» (الخطبة ٩٧)

يشبه الإمام علي عليه السلام سكون وتحرك أهل الكوفة بالجِمال التي غاب عنها رعاتها وكلما جُمعت من مكان تفرقت من مكان آخر. هذا النوع من التشبيه هو تشبيه أمر معقول بأمر محسوس وهو أيضا تشبيه مركب والغرض منه بيان حال المشبه وإقراره في ذهن المخاطب، إذن الإمام علي عليه السلام من خلال هذا التشبيه يعطى لنا صورة واضحة عن جهل أهل الكوفة وعدم إنتظامهم.

٣ـ ٢ـ الإستعارة

من الخصائص الأخرى لأسلوب الإمام علي عليه السلام في المستوى الدلالي هو إستخدامه الوسيع لصناعة الإستعارة. لقد إستعان أمير المؤمنين بهذه الصناعة لخلق صور بديعة وتهييج مشاعر وعواطف المخاطبين وكذلك تحفيزهم على التأمل والتفكير، ليتم له من خلال ذلك رسم ما يدور في ذهنه بشكل جميل وخلّاب.

نشير في مايأتي إلى بعض نماذج الإستعارة في خطب نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام.

١ـ «وَازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوالِغِ، وَانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَواعِظِ فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُم مَخَالِبُ الْمَنِيَّة» (الخطبة ٨٥)

في هذه العبارة شبه الإمام علي عليه السلام «المنية» (الموت) بـ«السبع» (الحيوان المفترس) و الجامع في طرفي التشبيه هو القتل والهلاك المباغت، ثم إستعار «السبع» للـ«منية» وحذف المشبه به و أتى بشيء من لوازمه وهي المخالب على سبيل الإستعارة المكنية التخيلية.

إن تشبيه الموت بحيوان مفترس وإثبات المخالب لما هو عقلي (الموت) يعتبر صورة بعيدة عن إدارك الذهن ولا يمكن تصوّرها إلا من خلال قوة التخييل؛ في هذه العبارة شبه الموت في سرعة بطشه وهجومه على الناس بحيوان مفترس قد نصب مخالبه لإفتراس الناس وأسدل ظلاله النحس على رؤس البشر. الهدف من هذا التشبيه المعقول بالمحسوس

بصورة الإستعارة المكنية هو أنه ينبغي على الإنسان إغتنام الفرصة وبذل الجهود للقيام بالأعمال الصالحة والتي تعتبر زادا ليوم الحساب.

٢ـ «أَيُّهَا النَّاسُ، شُقُّوا أَمْواجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنافَرَةِ» (الخطبة ٥)

إن هذه العبارة تحمل في طياتها صورا جميلة تستحق التأمل والتفكير، وقد أوجد الإمام علي عليه السلام صلة وثيقة بين المستعارله والمستعار منه. فمن جانب شبه الإمام علي عليه السلام الفتن ببحر متلاطم، ثم حذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهي الأمواج على سبيل الإستعارة المكنية التخيلية؛ إن الجامع في كلا الطرفين الإتيان بشكل متتابع ومضاعف (أمواج البحر المتلاطمة) وهذا الأمر يتضح في المشبه به أكثر من المشبه، ومن جانب آخر إعتبر الإمام أن طريقة نجاة البشرية هم الأئمة الربانيون وأئمة الهدى والدين، وقد شبههم بالسفن وحذف المشبه وذكر المشبه به (السفن) بإعتباره وسيلة للنجاة من الفتن وذلك على سبيل الإستعارة التصريحية الأصلية المرشحة.

إن أمير المؤمنين في هذه الإستعارة والتي تعتبر إستعارة محسوس لمعقول وضّح لنا خطورة أمر الفتن وإتساعها في عصره وزمانه وذكر أن السبيل الوحيد للخلاص من هذه الفتن هو اللجوء لأئمة الهدى.

٣ـ ٣ـ الكناية

العنصر الآخر التي يعتبر من خصائص أسلوب الإمام علي عليه السلام

في المستوى الدلالي هو صناعة البلاغة؛ إن الإمام علياً عليه السلام من خلال إستخدامه لصناعة الكناية يعبر بشكل غير مباشر عن خوالج نفسه ومشاعره الداخلية ويرشد مخاطبيه ويساعدهم على معرفة الحق والحقيقة.

١ـ «وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الأَمْرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ» (الخطبة٤٣)

إن الإمام علياً عليه السلام وعند حديثه عن ضرورة الجهاد ومحاربة أهل الشام يستخدم هذا التعبير الكنائي؛ وهذا التعبير المجازي هو كناية عن صفة المهارة والتظلع في جوانب الشيء، ولا يمكن هنا إعتبار معنى اللفظ الحقيقي.

٢ـ «لَمْ يَعَضَّ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ» (الخطبة ١٧)

في هذه العبارة يستخدم أمير المؤمنين هذه الكناية لوصف خصائص الجهلاء أدعياء العلم والمعرفة. وهذا التعبير يعني عدم المعرفة والعلم في حقيقة الأمور، ولا يمكن إعتبار المعنى الحقيقى للفظ على الإطلاق بل يقصد منه المعنى الكنائي.

٣ـ ٤ـ المجاز

أحد خصائص أسلوب الإمام علي عليه السلام في خطبه هو إستخدامه لأنواع المجاز.

٣ـ ٤ـ ١ـ المجاز المرسل

يوجد العديد من الشواهد للمجاز المرسل في خطب نهج البلاغة و

سنذكر بعض النماذج من هذه المجازات.

١ـ «فَحَنَوْا بِطُولِ الطّاعَةِ اعْتِدالَ ظُهُورِهِمْ» (الخطبة ٩١)

إن إنحناء الملائكة يقصد منه المعنى المجازي ويعني هنا الكمال في الطاعة والخضوع لله عز وجل وإن إستعمال عبارة «إعْتِدال ظُهُورِهم» بدل «كمال الخضوع» يعتبر إستخداما مجازيا؛ لأنه ذكر هذه العبارة على سبيل المجاز المرسل ذي العلاقة المسببية (إعتدال الظهور) وحذف السبب (كمال الخضوع).

٢ـ «فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ» (الخطبة ٢٣٩)

يستخدم أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذه العبارة المجاز اللغوي لوصف أهل البيت عليهم السلام. في هذه العبارة نشاهد وجود المجاز اللغوي في كل من«عَيْش العِلم» و«مَوْت العِلم»؛ وذلك لأنهم في الحقيقة ليسوا حياة العلم وموته؛ بل إنهم سبب حياة العلم وعامل فناء الجهل وموته؛ إذن ففي هذه العبارة نشاهد مجازا لغويا في هذه الكلمات بعلاقة سببية (ذُكر السبب وأراد منه المسبب).

٣ـ ٤ـ ٢ـ المجاز العقلي

نشاهد العديد من النماذج للمجاز العقلي في خطب أمير المؤمنين عليه السلام وسنذكر بعضا من هذه النماذج.

١ـ «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ» (الخطبة ٣٢)

أسند في هذه العبارة كلمة «عَنُود» و«كَنُود» إلى فاعلهما غير الحقيقي «دَهْر» و«زَمَن»، في حين أن الفاعل الحقيقي لهما هي فتن الزمان التي تحدث الأضرار للناس وليس الزمان نفسه.

٢ـ «الْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ، حُجَّةُ الله عَلَى خَلْقِهِ» (الخطبة ١٨٣)

نظرا إلى أن كتاب الله من الحروف والأصوات يعتبر شيئا صامتا ولا يمكن تصور معنى «النطق» الحقيقي له. إن الفاعل الحقيقي للمجاز الموجود في «آمِر» و «زاجِر» هو الله جل وعلا وإن القرآن هو سبب بيان الأمر والنهي من قبل الله عزوجل.

٣ـ ٥ـ الرمز

أحد الخصائص الأخرى لأسلوب الإمام علي عليه السلام في خطبه هو إستخدامه لعنصر الرمز. وقد إستخدم أمير المؤمنين هذه الصناعة لتجسيد المفاهيم الذهنية لديه وبيان تجاربه الشخصية. قد ذكر الإمام علي عليه السلام في العديد من الخطب رموزا جديدة تدل على ذهنيته الإبداعية وأسلوبه الراقي.

هناك العديد من النماذج لوجود صناعة الرمز في خطب الإمام علي عليه السلام وهذه بعض منها:

١ـ «الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقِ نَاصِلٍ» (الخطبة ٦٩)

في هذا التعبير يرمز الإمام علي عليه السلام من خلال تعبير «أَفْوَق

نَاصِـل» (السـهم دون ريـش) إلـى عـدم التأثـير و الفاعليـة؛ وهـذا معـروف عـن العـرب، عندمـا يريـدون يتحدثـوا عـن الـشيء الفاقـد للتأثـير يصفونـه بأنـه سـهم بـلا ريـش «رَمَـاهُ بِأَفْـوَقَ نَاصِـلٍ». (ابـن منظـور، ١١:١٩٩٧/ ٦٦٢)

عندمـا يريـد الإمـام عليه السلام أن يصـف عـدم نـصرة أهـل الكوفـة لـه، وهوانهـم في أمـر الحـرب والجهـاد يسـتخدم رمـز السـهم بـلا ريـش. (حسـومی و آخـرون ١٣٩١: ٥١)

٢ـ «مَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا وَمَنَارٌ أَقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا» (الخطبة ١٩٨)

في هـذا الـكلام يحـاول الإمـام عـلي عليـه السـلام أن يرسـم لنـا حقيقـة الإسـلام؛ لهـذا فهـو يسـتخدم أسـلوب الرمـز الـذي يتضمـن المفاهيـم والمعـاني الإيجابيـة. في هـذا التعبـير الجميـل تـدل مفـردة «مَصَابِيـح» الرمزيـة ومـا يلازمهـا أي«مَنَـار» (النـور) علـى الهدايـة والإرشـاد وذلـك مـن خـلال تواصلهـما مـع البعـض ونظـرا إلـى السـياق العـام للعبـارة.

٣ـ ٦ـ التناقض (الإستحالة)

إن الإمـام علياً عليه السـلام يتقـن بشـكل كامـل صناعـة التناقـض أو الإسـتحالة ويسـتخدم هـذه الصناعـة في العديـد مـن خطبـه وكلامـه لاسـيما عندمـا يريـد أن يعرفنـا بصفـات الله عزوجـل أو عندمـا يريـد أن يرسـم لنـا خـداع الدنيـا، أو عندمـا يتحـدث عـن نفـاق أهـل الكوفـة؛ إذن فـإن التناقضـات الظاهريـة في خطـب أمـير المؤمنـين تـدل علـى هـدف وغايـة أمـير المؤمنـين مـن كلامـه

وللوصول إلى المعنى الحقيقي للعبارات المتناقضة يجب أن يتم التفكير الدقيق والتأمل التام في ما تتضمنه هذه العبارات من معان ومفاهيم.

وفي ما يأتي سنذكر بعض النماذج لهذه الصناعة في خطب أمير المؤمنين عليه السلام:

١ـ «كانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْها» (الخطبة ٢٣٠)

نشاهد في هذه العبارة أن بين جملة «لَيسُوا مِنْ أَهلَها» و«مَنْ أهل الدنيا» نوعا من التناقض الظاهري بين الجملتين، بحيث يتصور بأن هذا الأمر مخالف للحقيقة والصواب، لكن عندما يتم التعمق فيها نكشف أن إجتماع هاتين العبارتين بالقرب من البعض قد زاد من جماليات الكلام كما إنها قد زاد إنتباه القارئ وتوجهه.

٢ـ «لايُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلايَخْتَلِفُونَ فيهِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ ناطِقٌ» (الخطبة ١٤٧)

في هذه العبارة يبرز لنا التناقض الظاهري بين مفردتي«صَامِت نَاطِق» فلا يمكن تصور شيء صامت وناطق في الوقت نفسه؛ لكن في حال تأملنا في هذه العبارة نكشف أن أمير المؤمنين قد وصف الدين بأنه صامت ناطق؛ لأن الدين يشتمل على جاذبة ربانية تسوق الإنسان إلى طاعة خالقه سبحان وتعالى وتجره إلى الصراط المستقيم؛ إن أمير المؤمنين ومن خلال كسره لحواجز اللغة أوصل مفهومه من خلال ربطه لمعنيين

متناقضين وهذا الأمر قد عمّق من كلامه وجعله يحتاج ذهنا منفتحا حتى يستوعب ما يقول وما يقصد.

٣ـ ٧ـ التناص القرآني

عندما نقرأ نهج البلاغة يتبين لنا كثرة إستفادة الإمام علي عليه السلام من الآيات والمفاهيم القرآنية، بحيث لا تخلو خطبة له من آية أو مفهوم قرآني.

١ـ النص الحاضر: «أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً، وَمَنازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً» (الخطبة ٢٠٤)

النص الغائب: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ» (البلد/ ١١ـ ١٢)

العمليات النصية: قد إقتبس الإمام علي عليه السلام مفردة «العقبة» من الآية «فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَة» وقد قصد منها ما ينتظر العصاة والمجرمين من عقاب في يوم الحساب وهذا التناص هو في الحقيقة من نوع النفي المتوازي.

٢ـ النص الحاضر: «لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً» (الخطبة ٢٢٨)

النص الغائب: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ» (التوحيد/ ٣)

في هذه العبارة من خطبة الإمام علي عليه السلام إستخدم تعبير «لَمْ يَلِدْ» بشكل جميل مستوحيا ذلك من آية سورة التوحيد. إن الإمام علياً

عليه السلام بالإضافة إلى المفردات والتعابير القرآنية يستفيد كذلك من مفاهيم القرآن الكريم في خطبه وحديثه بشكل عام، إن النص القرآني الغائب الذي يتحدث عن وحدانية الله عز وجل وأنه ليس مولداً لأحد وليس له ولد من العالمين، نراه مستخدما مفهومه من قبل الإمام علي عليه السلام بشكل ساحر وجميل. إن نوعية التناص في هذه العبارة هي من نوع النفي المتوازي (الإمتصاص).

النتائج:

من خلال دراسة الخصائص الأسلوبية في خطب نهج البلاغة وإستخراج البني الصوتية والتركيبية والدلالية، توصلنا إلى النتائج الآتية:

١- في المستوى الصوتي نلاحظ استخدام الإمام علي عليه السلام لخصائص فنيّة كالسجع، والجناس، ونظم الإيقاع الداخلي، والتكرار، والتضاد، والمقابلة لما لها من تأثير عميق على إيقاع النص وترسيخ المعنى المطلوب في الأذهان، وبما أنّ هذه الخطب كانت تلقى في المناسبات فطريقة إلقاء والنبرات الإيقاعيّة تشدّ المستمع وتلفت انتباهه. البناء الإيقاعي لهذه الخصائص في كل قسم يتبع قانونا خاصا، فبالإضافة إلى إحداثها جوا إيقاعيا خاصّا فإنها تساعد كذلك على نقل المفاهيم الذهنية للإمام علي عليه السلام إلى القرّاء وتساعد على إيجاد التوازن والكشف عن خفايا الجمال في كلام الإمام.

٢- من خلال دراسة المستوى التركيبي (النحوي) توصّلنا إلى أنّ إستخدام التراكيب الفعلية أكثر من الجمل الإسمية عامة وهذا الإستخدام يرتبط بإطار الخطاب السردي في الخُطب حيث انَّ المقام يكون موضع السرد

والإخبار. إنّ الإمام علياً(عليه السلام) بتوظيفه الجميل للجمل الفعلية يترك تأثيراً كبيرا في نفوس مخاطبيه ويحدث في داخلهم إنفعالا ونشاطا كبيرا للغاية.كذلك حضور الجمل القصيرة في النص والوصل بينها أدّى إلى التماسك الداخلي والخارجي للخطب وقد ساعد على تأجيج العواطف والإحساسات الحزينة وكل ذلك يضاعف من تأثير الخطب وتجسدها بصور منقولة عن الواقع الحسي الذي لايفصح بالمعاني فحسب بل بالجو النفسي الذي يواكبها.

٣- على صعيد المستوى الدلالي (البلاغي)، فالتراكيب المستخدمة في الخطب تدلّ دلالة شمولية على المعاني التي كان تدور في ذهن الإمام(عليه السلام)، فقد بدأت المعاني واضحة جليّة للقرّاء من خلال الصور البيانية. إنّ أحد الخصائص الأسلوبية لخطب الإمام علي عليه السلام هو إستخدامه لصناعة التشبيه بشكل كبير في خطبه، بحيث يمكن القول أن كتاب نهج البلاغة يعتبر أغنى الأعمال الفنية من حيث إستخدامه للتشبيهات الرائعة والجميلة. ولقد إستعان أمير المؤمنين بالاستعارة لخلق صور بديعة وتهييج مشاعر وعواطف المخاطبين وكذلك تحفيزهم على التأمل والتفكير. ومن خلال إستخدامه لصناعة الكناية يعبّر بشكل غير مباشر عن خوالج نفسه ومشاعره الداخلية ويرشد مخاطبيه ويساعدهم على معرفة الحق والحقيقة. وقد إستخدم أمير المؤمنين الرمز لتجسيد المفاهيم الذهنية لديه وبيان تجاربه الشخصية.

المصادر والمراجع

١. ابن ابي الحديد، عزالدين ابوحامد.شرح نهج البلاغة، الطبعة الثانية. بيروت. دار احياء التراث العربي. (١٩٦٥م).

٢. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب. ط ٢. بيروت: دار صادر. (١٩٨٨م).

٣. ابن ميثم، كمال الدين ميثم بن علي.شرح نهج البلاغة. ترجمة قربانعلي محمدي مقدم و علی اصغر نوايي. مشهد: بنياد پژوهش هاى اسلامى. (١٣٧٥ش).

٤. أنيس، إبراهيم الأصوات اللغوية.مصر:دارالمعارف.(١٩٧٣).

٥. التفتازاني، سعد الدين. شرح المختصر. طهران: منشورات اسماعيليان. (١٤٢٥ق).

٦. حسومى، ولىالله؛ حسين خاكپور و محمد علی مهدوي راد. «شيوههاى تصويرسازى مفاهيم در نهج‌البلاغة»، مجلة مطالعات اسلامى علوم قرآن وحديث، كليّة الشريعة في جامعة فردوسي مشهد، السنة ٤٤، العدد ٨٩، خريف وصيف، صص ٣٣ – ٥٨. (١٣٩١ش).

٧. الداية، فايز. علم الدلالة العربي بين النظرية و التطبيق. الطبعة الثانية، دمشق: دار الفكر. (١٩٩٦م).

٨. شميسا، سيروس. كليات سبك شناسى.الطبعة الثالثة. طهران: منشورات فردوس. (١٣٧٤ش).

٩. شهيدى، سيدجعفر. ترجمه نهج‌البلاغة، الطبعة الثانية، طهران: آموزش‌انقلاب‌اسلامى.(١٣٧٠ش).

١٠. عباس، حسن. خصائص الحروف العربية و معانيها. دمشق: اتحاد الكتاب العرب. (١٩٩٨م).

١١. عبد المطلب، محمد. البلاغة والأسلوبية. الطبعة الثالثة، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. (١٩٩٤م).

١٢. عودة، خليل. «المنهج الأسلوبي

في دراسة النصّ الأدبي». مجلة النجاح للأبحاث. المجلد٢، العدد٨. صص١١٢-٨٩. (١٩٩٤م).

١٣. فتح الله، أحمد سليمان. الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية. دارالآفاق العربية. مصر: القاهرة. (٢٠٠٨م).

١٤. فتوحي، محمود. سبكشناسي، نظريهها، رويكردها وروشها. چاپاول. تهران: نشر سخن. (١٣٩٠ش).

١٥. فضل، صلاح. علم الاسلوب ومبادئه واجراءاته. الطبعة الأولى. القاهرة: دار الشروق. (١٩٩٨م).

١٦. مطلوب، أحمد. فنون بلاغة البيان والبديع. الكويت. دار البحوث العلميّة. (١٩٧٥م).

١٧. موسوي، سيد عباس. شرح نهج البلاغة، بيروت، دار الرسول ودار المحجة البيضاء. (١٤١٨ق).

١٨. الهاشمي، أحمد. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. بيروت: دار الكتب العلمية. (١٩٦٠م).